الفصل السادس:
فتح مكة

وعلم صلوات الله وسلامه عليه بنقض قريش لعهد الحديبية في حادث بني خزاعة فلم ير بداً من التوجه لمكة لفتحها.

يقول ابن إسحاق: فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة، وكانوا في عقده وعهده، خرج عمرو بن سالم الخزاعي، ثم آخر من بني كعب، حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة، وكان ذلك مما هاج فتح مكة، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس.. " (395/صحيح السيرة/صحابة/1654)

ويقول: (فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :♂.. **نصرت يا عمرو بن سالم ثم عرض لرسول الله عنان من السماء** فقال:.. إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب) (395/صحيح السيرة/صحابة1655).

ويقول: ".. وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا، قالوا: لما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير إلى مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة

وزعم لي غيره أنها سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها، ثم خرجت به، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث على بن أبي طالب والزبير بن العوام ☻ فقال:

".. أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى قريش، يحذرهم ما قد أجمعنا في أمرهم.. "

فخرجا حتى أدركاها بالخليقة، خليقة ابن أبي أحمد، فاستنزلاها، فالتمسا في رحلها، فلم يجدوا شيئاً، فقال لها على بن أبي طالب: أني أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا، ولتخرجي لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك. فلما رأت الجد منه قالت: أعرض، فأعرض، فحلت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا فقال: " يا حاطب ما حملك على هذا؟.. فقال: " يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكني كنت امرأ ضعيفاً ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم.. فقال عمر بن الخطاب: " يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر، فقال:

♂**اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم..**═.

فأنزل الله سبحانه وتعالى في حاطب:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ

ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ } [الممتحنة: ١ - ٤]، (396/صحيح/صحابة/1661)

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة مستخلفاً على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري لعشر مضين من شهر رمضان، فصام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديد بين عسفان وأمج أفطر.. ثم مضى صلى الله عليه وسلم حتى نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين..

قال ابن إسحاق: (ثم مضى حتى نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين، فسبعت سليم وبعضهم يقول: ألفت سليم وألفت مزينة، وفي كل القبائل عدد وإسلام، وأوعب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون والأنصار، فلم يتخلف منهم أحد، فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مر الظهران وقد عميت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدرون ما هو فاعل، وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل ابن ورقاء يتحسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به، وقد كان العباس بن عبد المطلب لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق.

قال ابن هشام: " لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله، وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على ساقيته ورسول الله صلى الله عليه وسلم عنه راض فيما ذكر ابن شهاب الزهري. (396 / صحيح السيرة / صحابة / 1663).

وقال: فلما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مر الظهران قال العباس بن عبد المطلب: فقلت: واصباح قريش، ولئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، قال: " فجلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء فخرجت عليها "، قال: " حتى جئت الأراك، فقلت: لعلي أجد بعض الحطابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة..

قال: فوالله أني لأسير عليها، وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل ابن ورقاء، وهما يتراجعان،، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكراً، قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، قال: يقول أبو سفيان: " خزاعة أذل وأقل من أن يكون هذه نيرانها وعسكرها " قال: فعرفت صوته، فقلت: " يا أبا حنظلة " فعرف صوتي، فقال: " أبو الفضل؟ قال: " قلت نعم " قال: " مالك فداك أبي وأمي؟ " قال: قلت: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس واصباح قريش والله.. قال: " فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ " قال: قلت: " والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك "، فأركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله صلى

الله عليه وسلم فأستأمنه لك قال: فركب خلفي ورجع صاحباه، قال: فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها قالوا: عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ☺ فقال: من هذا؟ وقام إليَّ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكنا منك بغير عقد ولا عهد...

ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم وركضت البغلة، فسبقته بما تسبق الدابة الرجل البطيء، قال: فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه فقلت: والله لا يناجيه الليلة دوني رجل، فلما أكثر عمر في شأنه قال: قلت: مهلاً يا عمر، فوالله أن لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف، فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب (لو أسلم).

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ♂**اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به**═.

قال: فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبح غدوت به

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ويحك يا أبا سفيان.. ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله.. قال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك.. والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئاً بعد.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: " ويحك يا أبا سفيان.. ألم يأن لك أن تعلم إني رسول الله ".. قال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي وما أحلمك وأكرمك وأوصلك.. أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً.. فقال له العباس: " ويحك أسلم، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول لله صلى الله عليه وسلم: قال: فشهد شهادة الحق، فأسلم..

قال العباس: قلت: " يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً قال صلى الله عليه وسلم: نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن ".. فلما ذهب لينصرف، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا عباس أحبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حيث تمر به جنود الله فيراها ".

قال: فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحبسه، قال: ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة، قال: " يا عباس من هذه " من هذه "، فأقول: سليم، فيقول: مالي ولسليم؟ "

ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة فيقول:

" ما لي ولمزينة؟ " حتى نفذت القبائل ما تمر به قبيلة إلا سألني عنها، فإذا أخبرته بهم قال: ما لي ولبني فلان، حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء.. فيها المهاجرون والأنصار ♦، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة، قال: نعم إذن، قال: قلت: النجاء إلى قومك.. حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس قبح من طليعة قوم.. قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغني عنا دارك قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فترفق الناس إلى دورهم وإلى المسجد " (400 / صحيح السيرة / صحابة / 1667).

وقال: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة برد حبرة حمراء، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما وعده وأكرمه الله من الفتح، حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل.

وقال: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى أمرائه من المسلمين.. حين أمرهم أن يدخلوا مكة.. ألا يقاتلوا إلا من

قاتلهم.. (401 / صحيح السيرة / صحابة / 1676).

وقال: " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء بالبيت فطاف به سبعاً على راحلته، يستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضي طوافه دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له، فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ثم وقف على باب الكعبة وقد استكف له الناس في المسجد " (404 / صحيح السيرة / صحابة / 1680).

قال ابن هشام: " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم، فرأى إبراهيم عليه السلام مصوراً في يده الأزلام، يستقسم بها فقال: " قاتلهم الله، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ما شأن إبراهيم والأزلام ".

قال تعالى:{ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾} [آل عمران: ٦٧].

ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست.. حديث صحيح أخرجه الشيخان وأحمد في مسنده.. إلخ.

وقال: وحدثني من أثق به من أهل الرواية، في إسناد له عن ابن شهاب الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس ☺ قال:

" دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح على راحلته فطاف عليها وحول الكعبة أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب في يده إلى الأصنام وهو يقول: ♂**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً**—.

فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقي منها صنم إلا وقع، فقال تميم بن أسد الخزاعي في ذلك:

" وفي الأصنام معتبر وعلم.. لمن كان يرجو الثواب أو العقاب "

(405 / صحيح السيرة / صحابة 1964).

وقال ابن إسحاق: وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف: من بني سليم سبعمائة، ويقول بعضهم: ألف، ومن بني عقار أربعمائة، ومن أسلم أربعمائة ومن مزينة ألف وثلاثة نفر، وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب من تميم وقيس وأسد.. (406 / صحيح السيرة / صحابة /1699).

هذه بعض لقطات من المشاهد التي سبقت فتح مكة أو صاحبت التجهيز لها والسير لفتحها وبعد فتحها.. ورأينا ما صنعه حاطب بن أبي بلتعة من الكتابة إلى قريش ليحذرهم بما قد أجمع عليه الرسول وصحبه من الخروج لفتح مكة.. بعد نقض قريش لعهدها مع الرسول صلى الله عليه وسلم في حادث بني خزاعة ولخطورة ما فعله حاطب.. وما قد يتبعه ذلك... من كشف خطة الرسول في تحقيق عنصر المفاجأة لأعداء دعوته.. وفتح مكة دون إراقة دماء بقدر الإمكان.. فقد أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب.. ليتمكن من إدراك المرأة التي كتب معها حاطب بكتابه إلى قريش وأخذ هذا الكتاب منها قبل وصوله إلى قريش وفوات الأوان.. وأنزل المولى عز وجل في أمر حاطب:

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٤} [الممتحنة: ١ - ٤]. إلى آخر القصة لتكون هذه الآيات.. درساً بليغاً لكافة عصور وأجيال المسلمين إلى يوم يبعثون.. بعدم كشف أسرار أو عورات بعضهم البعض.. وأن يستعينوا دائماً على قضاء حوائجهم بعد توكلهم على العلي القدير بالكتمان، وألا يتخذوا تحت أي مسمى أعداء الله أولياء لهم يصانعونهم أو يداهنونهم بالمودة.. وإنما عليهم أن يتحلوا بالشجاعة الإيمانية والأدبية.. بأن يصارحوا أعداء الله وأعدائهم بالبراءة منهم ومما يعبدون والكفر بهم أيضاً، وبما يعبدون من دون الله الواحد الأحد الديان حتى يثوبوا إلى رشدهم ويؤمنون بالله الأحد وحده، كما نرى عند نزول الرسول صلوات لله وسلامه عليه بممر الظهران، أثناء سيره في عشرة آلاف من المسلمين لفتح مكة.. يلتقي العباس بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم صدفة بصديقه القديم أبي سفيان بن حرب ورأس الكفر والشرك في قريش وزعيمها.. والخصم اللدود لمحمد صلى الله عليه وسلم والعدو الأول للإسلام والمسلمين.. عندما خرج

وصاحبه بديل ابن ورقاء يتحسسان أخبار المسلمين.. فيدور أثناء لقاء الصدفة هذه.. التي أرادها ورتبها العلي القدير ولحكمة يريدها عزّ وجل.. حوار طويل بين الصديقين القديمين العباس ☺ وأبي سفيان بن حرب تنتهي بإجارة العباس ☺ لأبي سفيان، وإشهار أبي سفيان بن حرب لإسلامه أمام الرسول صلوات الله وسلامه عليه.. ووقوفه مع العباس ☺ بمضيق الوادي عند خطم الجبل فتمر به جنود الله في ثبات وجلال ووقار المؤمنين نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ثم تزداد هذه النورانية مصحوبة بازدياد الوقار والجلال والهيبة.. إلى أبعد مدى بمرور كتيبة الرسول صلى الله عليه وسلم الخضراء.. وفيها صحبه من المهاجرين والأنصار فتنتاب زعيم قريش الرهبة فيقول للعباس ☺: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، فيصحح له العباس ☺ ما قاله بالرد عليه بثقة المؤمن بدينه ورسوله: يا أبا سفيان أنها النبوة فيتدارك أبو سفيان الذي أشهر إسلامه منذ ساعات الأمر.. ويؤكد على العباس بقوله: نعم إذن.

ويتوجه أبو سفيان إلى قومه صارخاً بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.. ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن.. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد... لتفتح مكة دون إراقة دماء... كما قدر وأراد الله جلا وعلا وفي الموعد.. الذي أراده وحدده العلي القدير لفتحها وبشر به من قبل ذلك بآلاف السنين في كتبه ورسالاته السماوية.. ولحكمة قدرها ويعلمها هو سبحانه وتعالى.. وبشر بها جل وعلا من قبل في أكثر من موضع من كتب

أهل الكتب.

ومن ذلك ما جاء في العهد القديم في سفر التثنية 2/23 من الكتاب المقدس (جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير وتلألأ من جبل فاران، وأتى معه عشرة آلاف من القديسين، وعن يمينه نار شريعة لهم).

وهذه النبوءة وما تحمله من بشارات تتضمن النبوات الثلاث: نبوة موسى عليه السلام ونبوة المسيح عليه السلام، ونبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه، فالمجيء من سيناء المقصود به هنا هو جبل طور سيناء الذي كلم الله تبارك وتعالى عليه موسى عليه السلام... والإشراق من ساعير المقصود به ظهور رسالة المسيح عليه السلام في بيت المقدس.. وساعير قرية موجودة هناك إلى اليوم.

أما التلألؤ من جبل فاران، فالمقصود به الوحي الذي نزل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وهو في غار حراء بمكة.. وكلمة تلألأ هي وصف دقيق لكيفية نزول الوحي جبريل عليه السلام على الرسول في غار حراء أو تلألؤه في السماء في أكثر من جهة حول الرسول وملأ نوره للسماء حول الرسول واقترابه وابتعاده.. ومناداته للرسول لدرجة أن أغشى على الرسول صلوات الله وسلامه عليه لهول ما صاحب ذلك من قوة نور وإضاءة حوله.

ومن المعروف أن فاران هي مكة، وقد جاء أيضاً ما يؤكد على ذلك في سفر التكوين 20/21 - 21 عن النبي إسماعيل عليه السلام:

(وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس وسكن في برية فاران

وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر).

ومن المشهور والمتعارف عليه تاريخياً أن إسماعيل سكن بجوار البيت الحرام أو ما يسمى بمدينة فاران وقد قيل: إنها سميت فاران بالتشديد على الراء بمعنى هاربان هما هاجر وإسماعيل عليه السلام.

وقد قال المؤرخ جيروم واللاهوتي يوسيبوس بأن فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من أيله (القدس).

فإذا ما عرف ذلك، فإنه لابد من خروج نبي من مكة وقد جاء في صحيفة حبقوق 3/3:

(والله جاء من تيماء والقدوس من جبل، فاران مجده على السماوات والأرض وامتلأت بحمده)

والمراد بالقدوس الطهور، وهي إحدى صفات النبي محمد صلى الله عليه وسلم، كما أن الوحي كما هو معروف نزل عليه في غار حراء في جبل حراء بمكة وخرج منه قدوساً، ليحمل أعظم الرسالات إلى الإنسانية جميعاً، كما أن كلمة " حمد " هنا ذات مغزى هام ذلك أن اسم محمد يعني حرفياً الممدوح.

ولقد كان اليهود قبل ظهور الرسالة المحمدية، يعلمون ذلك تماماً حتى أن يهود المدينة كانوا يهددون الأوس والخزرج بقرب خروج نبي يقتلهم قتل أرم وعاد، ولكنهم كانوا يأملون أن يخرج منهم وليس من ذرية إسماعيل، عليه السلام.

أما لفظ: (وأتى معه عشرة آلاف من القديسين) فهذا من أعجب العجائب، فالمقصود هنا يقيناً هو فتح مكة، فمن الموثق والموثوق به تاريخياً أنه لعشر خلون من رمضان في السنة الثامنة من الهجرة

وكما تقدم ذكره غادر رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة متجهاً إلى فتح مكة في عشرة آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم وهو الفتح الأعظم الذي أعز الله عز وجل دينه وجنده ورسوله الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الحرام من أيدي الكفار والمشركين، ودخل بسببه الناس في دين الله أفواجاً، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجاً.

ولفظ: (وعن يمينه نار شريعة لهم) جلي في أن هذا النبي القادم معه شريعة جديدة ناسخة مطهرة مشرقة سيحترق فيها كل غث أو باطل أو خارج عن الناموس أو منحرف بالإضافة إلى كونه صلى الله عليه وسلم بشيراً لأتباعه الموحدين بالله المؤمنين برسالته ودعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. بجنات تجري من تحتها الأنهار عرضها السماوات والأرض.. فيهن من البهجة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. ومتكئين فيهن على فرش بطانها من إستبرق، وجني الجنتين دان... إلخ فإنه أيضاً يكون نذير لخصوم دعوته من المشركين والكفار والملاحدة ومرتكبي الكبائر والطغاة.. من عذاب جهنم المستعرة التي وقودها الناس والحجارة.

وفي تراجم أخرى كما هو الحال في نص النسخة المنقحة المعتمدة التي نشرتها جمعية الكتاب المقدس البريطانية يوجد لفظ (والشريعة المشعة بيده اليمنى) بديلا عن (وعن يمينه نار شريعة لهم).

وعلى أية حال، فإن كلا النصين يتوافق مع ما أتى به صلوات الله وسلامه عليه، فلا يوجد معنى لقيمة أو فضيلة، أو مبدأ سام

لشريعة وضاءة إلا وأتى به صلوات الله وسلامه عليه.

كما وردت بشارات عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم حامل السيف ذي الشفرتين والذي كان جهاده بالسيف مصحوبا بالتكبير والتسبيح والتهليل بوحدانية الله وتحطيم عبادة الأوثان ورفع الأذان للصلاة في عدة مواضع من كتب العهد القديم الملحقة بأسفار موسى الخمسة وهي في المزمور 1701/45 وفي المزمور 9/149 - 1 وفي سفر أشيعا 1/42 - 17 وفي سفر دانيال 1/2 - 45 وفي رؤيا يوحنا 26/2 - 29 ويمكن للدلالة على ذلك وبإيضاح جلي الاكتفاء بنقل بعض الفقرات من كل موضع.

ففي مزمور 3/45 - 5 قال داود عليه السلام، بعد أن تغنى بصفات كثيرة للنبي المبشر به في أسفار موسى السابقة.

(تقلد سيفك على فخذك أيها الجبار جلالك وبهاءك وبجلالك اقتحم اركب من أجل الحق والدعة، والبر فتريك، مخاوف نبلك المسنونة في قلب أعداء الملك شعوب تحتك يسقطون).

وفي المزمور 5/149 - 9 أن طلب داود عليه السلام من بني إسرائيل أن يفرحوا بالنبي المبشر به، قال:

(ليبتهج الأتقياء بمجد ليرنموا على مضاجعهم تنويهات الله في أفواههم، وسيف ذو حدين في يدهم ليصنعوا نقمة في الأمم وتأديبات في الشعوب لأسر ملوكهم بقيود وشرفائهم بكبول من حديد، ليجروا بهم الحكم المكتوب كرامة هذا لجميع أتقيائه)

وفي سفر دانيال 1/2 - 45 رؤيا للملك نبوخذ نصر قد نكتفي لعدم الإطالة بذكر الفقرتين الرابعة والأربعين والخامسة والأربعين إذ يقول

دانيال بعد تفسيره لرؤيا الملك:

(وفي أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السماوات مملكة لن تنقرض أبداً وملكها لا يترك لشعب آخر، وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد، لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا بيدين، فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب، الله العظيم قد عرف الملك ما سيأتي بعد هذا العلم حق وتعبيره يقين).

وفي سفر أشعياء 22/10. 13 و 17:

(" 10 " غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحة من أقصى الأرض، أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها، لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار لتقوم سكان سالع من رؤوس الجبال، ليهتفوا، ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحة في الجزائر " 13 " الرب كالجبار ويخرج كرجل حروب ينهض غيرته ويصرخ ويقوي على أعدائه " 17 "، قد ارتدوا إلى الوراء وتخزى خزياً المتكلون على المنحوتات القائلون للمسبوكات وأنتن آلهتنا).

وفي سفر المشاهدات أي رؤيا يوحنا 27/2:

(فيرعاهم بقضيب من حديد كما تكسر آنية من خزف).

وإن المتأمل للبشارات الخمس السابقة ليلحظ بيسر، أنها اشتركت في ذكر بعض من صفات النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فيما يتعلق بجهامة وصفات أمته وتسبيحها وأذانها والتي لا تصدق فيمن سواها.

وقد نوجز ما يخلص إليه ذلك ومن سند ما يؤكده الواقع والتاريخ والجغرافيا فيما يلي:

أ) أن النبي المبشر به يتميز بالهيبة والوقار والبهاء، وهذا ما كان يتميز به وجه النبي محمد صلى الله عليه وسلم وتتميز به سلوكياته وأخلاقه قبل وبعد بعثته حتى أن الله عز وجل وصفه في القرآن الكريم بأنه على خلق عظيم{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾} [القلم: ٤]، كما شهد له به أنصاره وخصومه على السواء وتروي لنا كتب السيرة أن أحد غلاظ الأعراب ارتعد من هيبة وجهه الكريم فقال له النبي بتواضعه: ♂**هون عليك يا أخي ما أنا إلا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**♂ كما أن هيبته ووقاره وحكمته ونبوغ قيادته وصدقه وأمانته وطاعة أتباعه له وإجلالهم ومحبتهم إياه ترتيباً على ذلك، وهم أكثر أهل الأرض شجاعة وإقداماً وهيبة وفروسية، وهذا له ما تؤكده كتب السيرة والتاريخ، وليست مجالاً للجدل أو المناقشة، حتى من أكثر خصومه عناداً أو مكابرة.

ب) إنه صلى الله عليه وسلم في فروسيته وجهاده ضد الكفر والشرك والوثنية كان يتقلد على فخذه سيفاً ذي شفرتين، كما كان أصحابه يتقلدون أيضاً ذات النوع من السيوف، إذ من المعروف أن السيوف العربية في زمن الرسول وأصحابه كانت تشتهر بأنها من ذوات الشفرتين لتميزها على سواها من السيوف ذات الشفرة الواحدة، كما كانت نباله صلى الله عليه وسلم في معاركه ضد الكفر والشرك معدة مسنونة، (فتريك يمينك مخاوف نبلك المسنونة) إذ من المعروف أنه صلى الله عليه وسلم كان يعني كثيراً بدور النبال وأهميتها في معاركه وقتاله ومعروف تاريخياً أن عدم امتثال رماة النبال لأوامره في موقعة أحد، وتعجلهم في اقتسام الغنائم، كاد أن يترتب على ذلك آنذاك، وكما شرحنا من قبل هزيمة قاصمة

بالمسلمين، وأن الله عز وجل أراد بذلك أن يعلمهم ويؤكد لهم ضرورة الامتثال لأوامر الرسول ونواهيه.

ج) إن جهاده وحروبه صلى الله عليه وسلم كانت لإقرار كلمة الحق بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ودك معاقل الكفر والشرك والوثنية سواء في الجزيرة العربية أو في العالم أجمع، وكانت رسالاته تؤكد على التهليل بتكبير الله ووحدانيته وأحديته والتسبيح له وحمده، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما ترتب عليه انتصار دعوته وأصحاب دعوته على أكبر إمبراطوريتين في التاريخ، الروم والفرس، وسقوط الممالك والشعوب الوثنية وانكسار وأسر أو قتل ملوكهم، وإجبارهم على اتباع ما حكم الله به في قرآنه الكريم وهو ما يفسر ما ورد بالمزمور 45: (اركب من أجل الحق والدعة والبر فتريك يمينك مخاوف نبلك المسنونة في قلب أعداء الملك شعوب تحتك يسقطون...).

وما ورد في الزمور: " تنويهات الله في أفواههم وسيف ذو حدين في يدهم ليتصنعوا نقمة في الأمم وتأديبات في الشعوب لأسر بقيود وشرفائهم بكبول من حديد، ليجروا بهم الحكم المكتوب. كرامة هذا لجميع أتقيائه... ".

د) إن هذا النبي المبشر به له صفات وسمات وأماكن محددة ومميزة أيضاً تخصه لا يشاركه فيها نبي آخر - فبجانب كونه متقلداً بالسيف ذي الشفرتين ونبله دائماً مسنونة وسقوط أمم وشعوب الشرك والوثنية تحت دعوته وأن أصحابه وأتباع دعوته ورسالته المؤمنين بها سينشرون شريعة الله التي طالما انتظرتها الأمم -

ويدكون معاقل الوثنية والشرك والكفر ويوبخون شعوب ويقيدون ملوكها وأشرافها بالقيود - فهم يسبحون لوحدانية الملك وأحديته وعظمته وعليائه وقدرته وقوته وجلاله تسبيحاً جديداً وبنهج ولغة جديدين يرفعون فيها الآذان من حلقوهم: (تنويهات الله في أفواههم، ترفيع الله في حلوقهم) قبل الصلاة والدعاء لله عز وجل وهو ما لم يحدث من قبل قط من أتباع أي نبي أو رسول سوى محمد صلى الله عليه وسلم - وترتب عليه فرح المناطق التي سكنها قيدار ابن النبي إسماعيل عليه السلام، وجد النبي محمد صلى الله عليه وسلم - أي مكة المكرمة - بهم حيث خرجت منها دعوة النبي المبشر به بالإضافة إلى أنه من أبنائها وينتمي إليها: (لترفع البرية ومدنها صوتها - الديار التي سكنها قيدار)، كما ستفرح أيضاً بهم المناطق التي بها جبل سالع - أي المدينة المنورة - " لتترنم سكان سالع " حيث استضافوا الرسول صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه المهاجرين معه واقتسموا معه ومع أصحابه المأكل والمشرب والمسكن والحياة في مدينتهم، وهم يهتفون منشدين مترنمين فرحاً بمقدمه إليهم:

طلع البدر علينا ::: من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ::: ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ::: جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ::: جئت يا خير داع

كما ناصروه وآزروه وجاهدوا معه في سبيل نشر دعوته وإبلاغ رسالته على خير ما تكون المناصرة والمؤازرة والجهاد..

وهنا يثور التساؤل: أليست هذه البشارات قد حددت وبصريح

اللفظ والعبارة ظهور النبي المبشر به في منطقة قيدار وسالع؟! وأليس قيدار هو ابن إسماعيل لصلبه وبإجماع أهل الكتاب وغيرهم أنه كان يسكن مكة المكرمة؟!

وأليس جبل سالع مازال معروفاً إلى الآن في المدينة وسكان هذه المنطقة هم الأنصار الذين هتفوا منشدين فرحاً بمقدم النبي صلى الله عليه وسلم مهاجراً هو وأصحابه وآزروه وعاهدوه على الجهاد معه في سبيل إقرار دعوته ورسالته، وصدقوا بما عاهدوا الله عز وجل ومحمدًا عبده ورسوله عليه؟!.

وهل ظهر نبي في مكة من نسل قيدار بن إسماعيل عليه السلام ثم هاجر إلى مكان فيه جبل سالع (المدينة المنورة) غير محمد صلى الله عليه وسلم؟

أما لفظ (فيرعاهم بقضيب من حديد كما تكسر آنية من خزف) الواردة في رؤيا يوحنا 27/2، فلقد فسرنا ذلك من قبل فيما نقلناه في هذا الخصوص عن ابن هشام وسأترك لابن عباس الصحابي ☻ شرح إحدى اللقطات من أحداث فتح مكة، ثم أترك لك عزيزي القارئ التعليق: فقد قال:

(كان حول البيت الحرام ستون وثلاثمائة صنم مثبتة الأرجل بالرصاص في الحجارة فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد عام الفتح جعل يشير بقضيب حديد في يده إليها ولا يمسها، ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً فما أشار إلى وجه صنم إلا وقع لقفاه ولا لقفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقي منها صنم).

وسبحانه من أنزل هذا الكلام:

قال تعالى: {ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ٢٠].

* * *